

٣ - المذهب الطبيعي

للأستاذ زكي نجيب محمود

ولكن مهلاً ، فلأنصار الروحية من البراهين على وجود الله ما يقوض هذا المذهب ويدكه من أساسه ذكاً ، لأنه إذا ثبت وجود الله فقد نهض اللبيل على صدق العقائد الدينية قوياً دافعاً ، وبطل هذا الهراء الذي يهرف به الطبيعيون ، ونحن نتخير من تلك البراهين ما يلي :

(١) إن ما في الطبيعة من نظام دقيق وجمال خلاب يستحيل عقلاً أن يكون قد جاء عرضاً بغير تقدير وتديير ، فإذا كانت الظواهر المادية تسير وفق طائفة من القوانين الثابتة المترددة ، فلا بد أن يكون هنالك من صاغ لها هذه القوانين وأكسبها ما لها من قوة وثبات . كذلك يستحيل أن يكون جمال الطبيعة وتناسق أجزائها مصادفة طارئة ، وإلا كنا كمن يزعم أن الساعة إذا تحطمت عُدها وانتثرت أجزاؤها ، أمكنها أن تتشتم من تلقاء نفسها ، وأن تبدأ السير والحركة من جديد .

(٢) إن مجرد وجود فكرة الله في أذهاننا دليل على حقيقة وجودها في الخارج ؛ وذلك لأننا تصور بمقولنا كلاً مطلقاً ، وهذا الكمال لا يتم إطلاقه إلا إذا وجد وجوداً فعلياً ، فإن لم يوجد كانت فكرتنا عن الكمال ناقصة صفة الوجود ، وفي هذه الحالة - أي في حلة اقتصار فكرة الكمال على مجرد التصور الذهني - نناقض أنفسنا ، فنكون كمن يقول : « إني أتصور كلاً مطلقاً ولكنه ناقص » مع أن الكمال والنقص لا يجتمعان وهنالك من الأدلة الأخرى على وجود الله ما هو شائع معروف ويمد هذا كله فهل ترى هذا المذهب الطبيعي قد نسر لنا شيئاً ؟ إن قضيته باختصار هي أن الكون كله مادة يسيرها القانون ، وأن العقل الإنساني كسائر الظواهر قطعة من المادة تتبع في سيرها نفس القوانين التي تسيطر على قطعة من الحجر . (١) أما إن الكون مادة فقط ، فلا يقدم ذلك في القضية

ولا يؤخر ، لأنه قول لا يطل شيئاً بعد أن خلصت الأبحاث العلمية الحديثة إلى أن القدرة للمادية ليست كائناً بسيطاً ، بل إن كل واحدة منها عالم دقيق على جانب عظيم من التركيب والتعمق ولها قدرة من تلقاء نفسها على التكون والانحلال والتحول ، كذلك لم يمد الحد الفاصل بين المادة والقوة عدداً وانحما كما كان من قبل ، فقد يظهر أنهما درجتان من حقيقة واحدة ، وأن الواحدة قد تتحول إلى الأخرى وبالعكس ، أي تتحول القوة إلى ذرة أو القدرة إلى قوة ، وإذن فلا يكفي في تمثيل الكون أن نقول إنه مؤلف من مادة ، لأن في هذه المادة نفسها ما يحتاج إلى التعليل (٢) وأما زعم الماديين بأن العقل ظاهرة مادية ، وأن حقيقة

الأحاسيس كما يقول هوزر إن هي إلا حركة في الجهاز العصبي ، وأن الفكر سلسلة من الاحساسات الماضية ، أي أنه مجموعة حركات متعاقبة ، فيكفي لهدمه أن نطالبهم مثلاً بشرح هذه العبارة : « أنا أحب هذه الوردة الجميلة » إنها حقيقة فكرية أحس بها ولا شك في وجودها ؛ فهل يقول للماديون إن هذا الحب هو هزة الأعصاب على نحو معين ؟ خذ مجهرك وانظر إلى الأعصاب فسترى قطعة من المادة تهتز وتتحرك حقاً ، ولكنك إن ترى « حياً » ولو حدثت في مجهرك طاماً كاملاً ، هذا ، وإن لنا أن نسائل الماديين : لماذا لا تنتج الحركة في كل ظواهر الوجود المادي إلا حركة مثلاً ، ثم هي في الإنسان تنتج إحساساً وفكراً ؟ وما أحسبنا ظافرين منهم بالجواب ؛ وإذن فقد عجز المذهب الطبيعي عن تفسير ظاهرة العقل كما فشل في شرح المادة نفسها

(٣) وأخيراً ، يقول أنصار هذا المذهب إن حوادث الكون يمكن تفسيرها بما يسيرها من القوانين العلمية ، ولكن أي عقل يكفيه هذا التفسير ؟ إني أرى مثلاً هذه القطعة من الحديد تمتد نهاراً وتنقلص ليلاً ، فلماذا ؟ سيقولون إنه قانون الحرارة المعروف القى تمتد المادة على سنته وقواعده ، ولكن لماذا تمدُّ الحرارة الأجسام ؟ فإن أجبت عن هذا السؤال بما يجيب به أرباب العلم من أن ذلك ناشئ عن تصادم الذرات أثناء تحركها ، فمأعود إلى استجابتك : ولماذا يحدث هذا ، حتى تقرر من أن هنالك آخر الأمر ما يتغير تطلبه بأصول هذا المذهب ، وأن القوانين التي يلجأون إليها لتعليل ظواهر الكون هي بدورها تحتاج إلى التعليل

مذهب الذرائع

PRAGMATISM

لقد لبثت الفلسفة دهرا طويلا تسبح في سماء الفكر المجرد ، فلا تصنى بأذائها الى الحياة العملية التي تمنع بأسدائها أرجاء الأرض جميعا . ولا تحفل بالواقع الذي تراه الأبصار إلا قليلا ، فقد قصرت مجهودها - في الأعم الأغلب - على جوهر الأشياء في ذاتها ، وأخذت تسائل : ما المادة وما الروح وما مبمبهما ؟ ولكنها باءت بمد طول الكدح والعناء بالفشل والافلاس ... حتى جاء الفكر الأمريكي الحديث الذي يقدر العمل ويعتق البحث النظري المجدد العميق ، وأراد أن ينحو بالفكر نحو ما جديدا ، فلا يكون من شأنه كنه الشيء ومصدره ، بل نتيجته وعقباه . ولقد كان أول من صاغ هذا المذهب وليام جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) الذي اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشعات تدعية ، وأن له فضل الصياغة والتمبير . أما رسالته التي قصدت إلى أذائها بمذهبها فهي في أوجز عبارة : أن يتخذ الانسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولا ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانيا

إنه لمن الذفلة والشطط أن تُتوق هذه القوة العقلية فتبدها في البحث عما وراء الطبيعة من قوى مما لا غناء فيه للانسان ولا رجاء ؛ ان العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكاملها ، فليصرف الى أداء واجبه ، وليضرب في مغمعان الحياة العملية الواقعة ، فليست مهمته أن يصور بريشته عالم النيب المجهول ، الذي لا يكاد يربطه بحياة الانسان سبب من الأسباب .. وليكن مقياسه الذي يفصل به بين الحق والباطل هو مقدرة الفكرة العينية على انجاز أغراض الانسان في حياته العملية ، فان تضاربت الآراء وتعارضت ، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجدها ، التي تنهض التجربة العملية دليلا على قائلته . وكل شئ يؤثر في الحياة أثرًا منتجًا يجب أن يكون في اعتبارنا هو الحقيقة ، بنض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخاقه الفكر المجرد من معايير ، إذ لا يُعمول مذهب الذرائع إلا على النتائج وحدها ؛ فان كان الرأي مشرعا نافعا قبلناه حقيقة ، وإلا أسقطناه من حسابنا وما باطلا

والواقع أن معظم الناس يتبعون في حياتهم العملية أصول هذا المذهب ، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء ما يمين على تحقيق أغراضهم التي يقعدون اليها ، أو ما يعمل على رقي الانسانية وتقدم البشر بصفة عامة . خذ العقيدة في الله مثلا ، فالأكثرية العظمى تأخذ بها لا لأن الدليل قاطع بوجوده ، (فذلك أبعد عن متناول الدهماء) ولكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث في حياة الناس روحا قوية ، وتفسح أمامهم في الأمل الجميل الذي تزدهر به الحياة وتبتسم ، والذي لولا لضيقنا ذرعا بفداحة عبثها ... فليس منا من لا يقيس الآراء بظروف عيشه ثم يختار منها أنسبها له وأفضلها في أداء مهمته ، فسلكنا المعلى هو في الواقع الذي يوجه أفكارنا . وليست أفكارنا هي التي توجه أعمالنا . ولقد قال موسوليني يوما إنه يدعى لوليام جيمس بكثير من آرائه السياسية ، وإنه بتأثيره لا يحتمك في سياسته الى نظريات العقل المجرد ، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى لإنتاجا

وإن نيتشه ليذهب في هذا الاتجاه الى أقصاه فيقرر أن الباطل إذا كان وسيلة ناجمة لحفظ الحياة كان خيرا من الحقيقة ؛ فبطلان الرأي لا يمنع قبوله مادام عاملا من عوامل بقاء الفرد وحفظ النوع ، فرب أ كذوبة أو أسطورة تدفع الحياة الى الأمام بما تمنح عنه الحقيقة المجردة العارية . أنظر كيف تفعل الوطنية في رأس الجندي فيطوح بنفسه بين برائن الموت ، ولو حكم عقله المجرد لما فعل ؛ بل انظر كم يبذل الآباء والأمهات من مجهود في سبيل أبنائهم ، ولو استرشدوا العقل وحده لأثروا أشخاصهم ولعنوا على الأبناء بأي بذل أو عطاء ، ولكننا لحسن الطالع ذرائعهم بالفطرة ، فنمتنق من الآراء أحفظها للحياة ، ولولا ذلك لظلت الانسانية في حيوانيتها الأولى لا تتقدم ولا تسير .

ولا يقتصر الأمر في ذلك على طامة الناس ، بل إن أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التي تمين على المضي في مجتهم ، دون أن ينهض الدليل العقلي على صحة تلك الآراء التي اتخذوها أساسا لأبحاثهم ، فلا يدري العلم ما الأثير وما الجاذبية وما للمادة وما للطاقة وما للكهرباء ، ولكنه يفرضها لأنها تمينه على أداء مهمته ، وهذا بينه ما يدعو اليه مذهب الذرائع ، فيكفي لأن تكون تلك الآراء صحيحة أنها توجهنا في